صلة الجاهلية بالعالم القديم

(٣)

التراجمة العرب في الامبراطورية

اما التراجمة العرب الذين تبوأوا المناصب الرسمية في الدولة الرومانية فلم يكن لهم شأن بؤبه له اما الذين كانوا منهم في بلاط فارس فأشهرهم عدي بن زيد ، ولقيط بن زرارة وكان لهم فيه مقام اثير لاتصالهم المباشر بالملك الأعظم ومعرفة لغته وقيامهم بالترجمة بينه وبين العرب ، ولذلك كان الناس يرغبون اليهم ويرهبونهم ، وكان عدي اذا اراد المقام في الحيرة في منزله ومع ابيه واهله استأذن كسرى فأقام فيهم الشهر او الشهرين واكثر واقل ، واذا دخل على المنذر نام جميع من عنده حتى يقعد عدي ، وقد أرسله كسرى سفيراً الى ملك الروم بهدية من طرف ما عنده فلما اتاه عدي اكرمه وحمله الى عماله على البريد ليريه سعة ارضه وعظيم ملكه وقد وقع عدي في دمشق وقال فيها الشعر فكان مما قال :

رب دار بأسفل الجزع من دو مة اشهى الي من جيرون
وندامى لا يفرحون بما نالوا ولا يرهبون ريب المنون
قد سقيت الشمول في دار بشر قهوة مزة بماء سخين

وكان لتلاعب المترجمين اثر واي اثر في تصريف الأمور ومن ذلك ما فعل زيد بن عدي باللفظ المترجم أخذاً بثأر ابيه فقد طلب كسرى من النعمان نساء لنفسه واوفد اليه زيد بن عدي ومعه رسول فارسي وقد زعم زيد للنعمان عند الاجتماع به في الحيرة ان كسرى اراد بمصاهرته تكريمه فشق الأمر على النعمان لظن العرب بنسائهم على غيرهم فقال لزيد ورسول كسرى يسمع ، اما في مها السواد وعين فارس ما يبلغ به كسرى حاجته ! فترجمها زيد «كاون» اي البقر فكانت تلك الترجمة سبباً آخر في تفاقم العداء بين الملكين .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اما لقيط فقد غضب لقومه عندما رأى سابور مجمعاً على غزو اياد فكتب لهم قصيدة ينذرهم فيها غزو الملك اياهم وقد قطع الملك لسان لقيط عقاباً له وغزا اياداً ومما قال لقيط :

يا لهف نفسي ان كانت اموركم شتى واحكم امر الناس فاجتمعا
قوموا قياماً على امشاط ارجلكم ثم افزعوا قد ينال الامن من فزعا
وقلدوا امركم لله دركم رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لا مترفاً ان رخاء العيش ساعده ولا اذا عض مكروه به خشعا
ماانفك يحلب هذا الدهر اشطره يكون متبعاً طوراً ومتبعا

اما الحجاز فكان السلطان فيه للعمالقة ثم لجرهم ثم لخزاعة وانتقل بعد ذلك الى قريش على يد قصي بن كلاب .

الخلاصة

وفي الجملة ان العرب لم يكونوا في تلك الحقبة الأخيرة من العصر الجاهلي أمة بالمعنى القومي الصحيح بل كانوا عمالاً لغيرهم وخولاً لسواهم الا انهم كانوا قد سئموا تلك الحالة من شيوع الفوضى في الأعمال والمتاجر وفقدان الأمن وثقل وطأة الغريب فظهروا بمظهر المتبرم الناقم وذلك في ثورات عدة كغارة تميم وقيس متساندين على اطراف المملكة الفارسية ، حتى ان الأوس والخزرج كانوا قد تعاهدوا في يثرب على ان يكون عبد الله بن أبيّ ملكاً عليهم ، وعندما سار سيف بن ذي يزن على الحبشة وانتصر عليهم خرج عبد المطلب من الحجاز الى اليمن لتهنئته بالنصر ، وقدمت على سيف وفود العرب وأشرافها ووفد قريش خاصة وقيل في ذلك شعر مشهور ، ولقد كان الاستعماران الفارسي والروماني مما اجتواه العرب في النهاية وازورّوا عنه ، ولقد رويت لكم ما كان من امر بني غسان وهرقل وأضيف عليه بهذا المقام ان الأمور كانت قد ساءت كذلك بين الأكاسرة والملوك اللخميين حتى فر النعمان من كسرى الى البادية يطوف على القبائل ليس احد منهم يقبله وهو النعمان الثالث ابوقابوس ممدوح النابغة الشاعر المشهور ثم نزل بهاني بن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مسعود الشيباني فأجاره واشار عليه بعد ان جعل حرمه وسلاحه في ذمته ان يشخص الى كسرى فلا يكون بعد الملك سوقة يتلعب به صعاليق العرب ويتخطفه ذؤبانها فقال له النعمان : هذا وابيك الرأي الصحيح ويمم كسرى فلما بلغ بابه بعث اليه من قيده وزج به في السجن وقيل القاه تحت ارجل الفيلة فقتلته وكان هلاك النعمان سنة ٦٢٠ م فغضبت له العرب وكان مقتله السبب في وقعة « ذي قار » التي قال عنها الرسول ﷺ اليوم انتصف العرب من العجم وقد نزحت قبيلة بكر ابن وائل بعد تلك الحرب الى البحرين فنزلت فيها غاضبة ساخطة واستأنفت الثورة على الفرس فانقطعت المواصلات بين فارس وبين الشرق والجنوب من بلاد العرب واخذ الاستعمار الفارسي بالأفول ولم يغنِ عن فارس مافعلته قبل ذلك من اختيار اياس بن قبيصة من قبيلة طي ملكاً على الحيرة فقد توفي اياس هذا سنة ٦١٤ م اي قبل مقتل النعمان واصبحت الحيرة بعد اياس المشكلة المعقدة في السياسة الفارسية ، واوحى الأفن في الرأي الى رجالها ان ينزعوا استقلال الحيرة ويجعلوها ولاية فارسية ففعلوا ونصبوا عليها حاكماً منهم فثارت مراجل الغضب في نفوس اهلها العرب وتربصوا بالفرس الدوائر وكان قد راعهم من قبل وملأهم رعباً ما شهدوا من وثبة الليث وما سمعوا من وقع لحييه على الفريسة ولكن شدّ منهم ورفه عنهم صوت النبوة الأقدس من الحجاز فاشرأبوا اليه جزلين فإذا هو منهم جدّ قريب واذا بالجحافل الفارسية في الحيرة تخنع بعد حين للفاتح العربي الجديد .

وكذلك كان الشعور القومي بين العرب يزداد قوة على قوة ويدنو بعضه من بعض .

اللغة العربية والعرب

ذلك ما كان عليه العرب من حال سياسية لم تخل من شوائبها كتابتهم ، فقد كانت لغتهم العربية وهي نفس اللغة التي نتكلمها نحن اليوم ما عدا اليمن وما اليه من أطراف نائية الا ان العرب الاقدمين وان نطقوا بتلك اللغة الكريمة فقد كانت كتابتهم باللغات الاخرى الغريبة ، فالمرقش الاكبر كتب شعره بالأحرف السريانية ، والغسانيون وان كانت لغتهم مضرية فقد دونوا اشعارهم واخبارهم بالعبرية او الرومية او السريانية ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكان المناذرة مثلهم قد كتبوا الخط الارامي وعلى ذلك جرى التدمريون والأنباط فقد كانت كتابتهم بالارامية ولغتهم المأنوسة هي العربية .

قال العلامة جويدي :

« ومن اللغات الأرامية الغربية لغة الكتابات النبطية وكانت الانباط أمة عربية الأصل ولغتها المأنوسة العربية فكانت اذ ذاك العربية للتكلم والمحاورة بين الناس لا لتحرير الكتابات والمكاتيب اذ الأحرف الهجائية لم تستنبط بعد » .

وقال الاستاذ مرجليوث عن العربية ما يأتي :

انها « لغه عاشت أجيالاً طوالاً محتفظة بنحوها وصرفها ومعاني مفرداتها من غير ان يكون لها أدب مكتوب، الأمر الذي يستدعي عناية فقهاء اللغات واهتمامهم . ثم قال :

« ان تلك اللغة لعجيبة في انتشارها ورشاقة تعابيرها ودقة تراكيبها وغنا مفرداتها واننا لنجد في نحوها الواسع تعليلاً وتفسيراً لكل ما يواجهنا من التراكيب الشاذة في اللغات السامية الأخرى على الرغم من ان لبعض هذه اللغات آدابا قديمة يرجع تاريخها الى عصور قديمة جداً ، فمن ذلك ما نجده في التوراة من التراكيب الشاذة المعقدة التي لا تستقيم ونحو اللغة العبرية والتي لا نجد لها تعليلاً وتفسيراً الا بالالتجاء الى النحو العربي ، اذ هو النحو الوحيد الذي نجد فيه ما يوضح لنا كثيراً من معميات التوراة وما خفي من تراكيبها الشاذة » .

ولا أزيد على ذلك كله الا قولي انه التعليل المعقول لضياع الكثرة من الأدب العربي القديم الذي اشار اليه عنترة بقوله « هل غادر الشعراء من متردم » ولذلك لم يبلغنا منه الا وشل من بحر ، وثمد من قطر .

أيها السادة

انه خليق بي ان اسجل بعد هذا كله ان لغتنا العربية ليست بالحديثة الطارئة ولكنها صنو الدهر وترب الأجيال المتقادمة وانها هي نفس اللغة التي تكلمت بها القبائل العاربة او البائدة، قال الطبري في السفر الأول من تاريخه المطبوع في ليبسك في الصفحة ٢١٣ ما يأتي

« ولقد كان بنو عاد وثمود يتكلمون بهذا اللسان المضري ويقال لهم العرب العاربة لأنه لسانهم الذي جبلوا عليه » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وبذلك قال صاحب نهاية الأرب في انساب العرب ولم يتعرض احد فيما اعلم نقض ذلك الرأي او القول بخلافه من عرب ثقاة او مستشرقين محققين .

العربيـــة وأسماؤهـــا

ان لغتنا هذه العربية تعرف كذلك بالمضرية ، والقرشية ، والعدنانية ، والفصحى ، سماها القرآن الكريم (اللسان العربي المبين) وحسبها شرفاً ان القصائد الصادعة ، والحكم الرائعة ، والخطب البارعة ، والمؤلفات الجامعة ، والرسائل المحبرة ، لم تكن الا من وشيها الأنيق ، ونسجها البديع ، وانها لأفصح ما اختلج به لسان .

العربيـــة القحطـــانية

اما العربية القحطانية فتعرف باللغة الجنوبية وهي بالقياس الى المضرية اقرب الى الرطانة الاعجمية وقد انتشرت في اليمن وحضرموت جنوباً حتى عُمان والبحرين شرقاً كالمعينية والسبئية والحميرية وقد اودت قبيل الإسلام او كادت وخلفتها لهجات متعددة كالزبور في حضرموت وبعض اليمن ، والرشق في عدن ، والحويلة في مهرة والشحر ، والزقزقة بين الأشعريين .

وهناك بضع قبائل كانت منازلها في الجنوب فنزحت منه الى الشمال واختلطت بأبناء معد بن عدنان اي ربيعة ومضر فأصبحت لغاتها مضرية مثل بني عطية وكندة وتنوخ

بنو قحطان وعدنان

ولقد كان القحطانيون قبل الإسلام أرباب الممالك والتيجان ، وأبناء الحضارة والعمران بخلاف العدنانيين الذين كانت تغلب عليهم البداوة فوق انهم كانوا قبائل متفرقة فلما تبلج فجر الإسلام تبوأ العدنانيون غارب الزعامة وألقت اليهم العرب بالمقاليد فانتقلت السيادة من قحطان الى عدنان .

اللغات الساميـــة

اما اللغات الـسامية فتنقسم الى ثلاثة فروع هي :

(١) العربية — وصنواها الحميرية والاثيوبية اي الحبشية القديمة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(٢) الآرامية – وفروعها السريانية والكلدانية والسامرية

(٣) العبرية — وما ماثلها كالفينيقية والكنعانية

وهنالك قسم رابع يضم الآشورية والعيلامية ·

وأما مزايا اللغات السامية فأشهرها الخصائص السبع التالية وهي :

(١) ان بين حروفها الصحيحة حروفًا حلقية كالحاء والخاء والعين

(٢) ان كلماتها تتألف غالباً من ثلاثة أحرف

(٣) ان لأفعالها زمانين وتصاريفها قياسية ومشتقاتها متشابهة

(٤) فيها المذكر والمؤنث والاعراب الذي هو من خصائص الآشورية والعربية المضرية

(٥) ليست فيها افعال او اسماء مركبة الا الأسماء المزجية ·

(٦) انها تكتب من اليمين الى اليسار ما عدا الحبشية فتدون بالعكس ويرجح ان ذلك طارىء عليها لأن نقوشها القديمة تجري على غرار اخواتها ·

(٧) ان الحركات تستعمل فيها للدلالة على بعض الأصوات ·

سادتي الأمائل

لقد رأيتم مما ألقيته على مسامعكم الكريمة ان العرب لم يظفروا باية وحدة في دارتهم او كتابتهم او اهدافهم او قوميتهم الا بعد بعثة النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم فقد جمع كلمة العرب قاطبة في وحدة عميمة شاملة أخرجتهم من الظلمة الى النور ومن الضعف الى القوة فنهضوا تحت رايته المقدسة الوارفة تلك النهضة الصادقة التي تحدث عنها التاريخ وتغنت بها الأجيال « انا نحن نزلنا الذكر ، وانا له لحافظون » ·

الصلة التجارية

ايها السادة

ان حديث التجارة لممتع طريف ، فلقد كان العالم وما فتأ قطب رحاه التجارة ، وقديمًا كانت الهند ، وكان الشرق الأقصى ، وهما الهدف المنشود لرواد المغانم والمرابح ، ومن المعلوم ان الملاحة في البحر الهندي كانت محفوفة بالمخاطر فوق انها طويلة الأمد بعيدة الشقة لاعتماد القوم فيها على الريح وفي الاخص قبل الماميهم في تلك الأيام

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بخصائص الريح الموسمية ، وهـذه الريح اثنتان — الأولى تهب من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي ، والأخرى تهب من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي ، ومدة كل واحدة منهما ستة أشهر

ولقد كان العرب يعرفون لدى الشعوب القديمة بانهم وسطـاء التجارة ، وحفظة دروبها ، جرياً على عادتهم في الحل والترحال ، وتمرسهم بالمفاوز ، وارتيادهم ما فيها من مرعى ومسارب ومناهل وآبار فوق صبرهم على شظفها ولأوائها ، وكانت بلادهم بحكم موقعها الجغرافي حلقة الاتصال بين ممالك العالم القديم ولقد قال استرابون « ان العربي تاجر بفطرته » .

ولما كان الخلاف قد دب فاستحكمت حلقاته بين الفرس والروم فقد اجمعت فارس على شل التجارة الرومانية مع الهند والشرق الأقصى ولذلك كان تهافتها شديداً على احتلال جنوبي الجزيرة لمنع بضائع الشرق من الوصول الى أسواق الرومان ، ولقد كان معظم التجارة مع جنوب الجزيرة يمر من الحجاز ومصر على ايدى التجار من ابناء اليمن وبعبارة اوضح السبأيين الذين كانت بيدهم عروض حضرموت وظفار وجميع ما يرد من سلعة الى صنعاء من الهند وكانوا يؤمون بها المحطة الكبرى العامة في ذلك العهد العريق واعني بها « تيماء »

ومما يحمل على الدهشة ان عرب سبأ استغلوا مناجم الذهب في روديسية الجنوبية ولا تزال فيها أطلال معابدهم وقلاعهم وآثار زمبابوي من صنعهم ومعنى زمبابوي مصانع الذهب وقد حملوا ذلك الذهب الى سليمان الحكيم في فلسطين من سوفالا أو « سوفالة » ثغر روديسية هذه الى اوفير في اليمن ومع الذهب الحجارة الكريمة والبخور والعصي الحلوة اي قصب السكر وفي الترنسفال أصقاع تسمى الراند تغل من الذهب ما يتضاءل دونه نتاج العالم بأسره وهنالك في الراند عرق من الذهب يمتد مسافة لا تقل عن ثمانين ميلاً من الغرب الى الشرق وقد اطلق الناس على هذا العرق اسم (عرق سبأ) اشارة الى (عرب سبأ) وما احرزوامن ثروة باستخراجهم ذهب تلك الناحية وقد اثبتت الآثار انهم استغلوا الذهب في مناجم تمتد من زمبابوي الى الراند التي قامت فيهـا مدينة جوها نسبورغ الحديثة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

واول مانتوه به من المسالك التجارية القديمة في بلاد العرب تلك الطريق التي تبدأ من ظفار على الساحل الجنوبي حيال سوقطره ، وكانت ظفار مصدر التجارة في البخور ، والى شمالها تقع الصحراء الكبرى المعروفة « بالربع الخالي » والطرق المألوفة تحف بها من طرفيها من الشرق والغرب .

الطريق الغربية

فالطريق الغربية تنحدر مع المجرى الأصلي لوادي حضرموت حتى تلتقي بالسيل المؤدي الى يودامون (عدن) وكانت القوافل الخارجة من صنعاء تسافر شمالاً الى الحجاز مجتازة سلسلة الجبال حتى تبلغ (هدية) و (العلا) على تخوم المملكة النبطية ، وكان حراس القوافل والقيمون عليها في الأكثر من أولئك العرب اليمانيين كما رأيتم ، وأما في العلا فقد كان الأنباط يتلقون فيها البضائع ويستوفون المكوس المضروبة عليها ثم يؤذن بها الى « تيماء » وتحملها القوافل من تيماء شمالاً الى بصرى ، وتدمر ، ودمشق ، ومن البضائع ما كان ينقل الى « ايلة » (العقبة) والى « رينوكلورا » (العريش) والى الطرف الشمالي من شبه جزيرة سيناء فيبعث به الى مصر ، ومنها ما كان يصدر الى حائل ثم الى العراق مجتنباً « النفود » وقد كان اولئك القيمون اليمانيون يقطعون الطريق كلها الى العقبة وذلك في فجر المسيحية ، وانما عندما اشتد بأس الأنباط استأثروا بالطرق التي تتخلل بلادهم وكانوا يتولون النقل بأنفسهم من العلا اول مدافعهم اي حدودهم حتى آخر ما لهم من حد ويصيبون من ذلك أموالاً طائلة .

ايلة (اوالعقبة)

ولقد كانت ايلة (العقبة) في تلك الآونة سوقاً للقوافل حافلة ، واما شهرة الانباط في التجارة فقد ملأت مسامع الدنيا حتى قال عنها ديودوروس الصقلي ان الأنباط بلغوا الاوج في احتكار تجارة آسيا الغربية وكان لهم الإشراف على جميع المتاجر الأخرى) .

سلع — وقد كانت مدينة سلع حاضرة الأنباط مجمع العملاء والصيارفة والسماسرة وارباب المال ، والمثابة التي تتشعب منها طرق التجارة الى سائر الارجاء — فتذهب شمالاً الي البلقاء وسوريا وتدمر ، وشرقاً — الى خليج فارس والعراق ، وغرباً — الى البحر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الأحمر ومصر ثم الى فلسطين وبلاد فينقيا ، ولا يزال المسافرون حتى اليوم يقعون من تلك الطرق على معالم ظاهرة للعيان على ان الرومان وان لم يبتدعوها فلم يألوا جهد في تعهدها وصيانتها من البوار .

ولقد كانت كل قافلة تغشى غير طرق الانباط عرضة للنهب والسلب بأيدي الانباط أنفسهم كما قال ديودوروس واسترابون .

ولما استولى الرومان على ايلة (العقبة) اصبحت منزلاً للجيش العاشر الروماني ، وكانت الرسوم تجبى فيها من قبل عمال الامبراطورية ، وقد شق تراجان طريقاً من ايلة الى فلسطين فأسدى يداً بيضاء الى تجارة البحر الابيض .

لوك كوم (املج) اما ميناء لوك كوم (املج) الواقع شمالي ينبع فكان مرتبطاً بصنعاء ومأرب ، فكانت البضائع تحمل الى ذلك الميناء ثم تشحن منه في البحر الأحمر بعد الوقوف على خصائص الريح الموسمية .

الطريق الشرقية

أما الطريق الشرقية فكانت تبدأ من جرها (القطيف) وكانت البضائع الوافدة من الهند تهبط فيها وتحملها القوافل منها فتسلك بها الطريق المطيفة بتخوم عمان مجتنبة اختراق الصحراء الموحشة ثم تلم بظفار آخذة سمتها الى مأرب وصنعاء والى لوك كوم (املج) حتى تتصل بالحجاز مفضية الى مكة .

وظفار مدينة على ساحل جون يخرج من بحر الهند ويطعن في الشمال ، عدة اميال .

ولقد كان بين الهند وساحل حضرموت اتصال مباشر لا يزال قائماً الى اليوم تشق عبابه سفن الاعراب .

يودامون (عدن)

وكان ميناء يودامون (عدن) مثابة للعدد الجم من السفن القادمة من الهند ، ثم تسير القوافل من يودامون هذه تقل البضائع الى مكة ، ويثرب ، وسلع ، وبصرى ، حتى دمشق ، وتدمر ، والعراق ، اما الطرق التي تخترق الشطر الشمالي من البلاد واعني به مكة — اليمامة — جرها ، فانها احدث عهداً .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تيماء وعهدها الناضر

اما اقدم الطرق التجارية المعروفة فهي تلك الطريق التي كانت تمتد من جرها (القطيف) الى تيماء مجتازة اليمامة ، وعنيزة ، وحائل .

كانت تيماء في عهدها الناضر منتجع القوافل الشمالية للجزيرة العربية قاطبة ، ويرجع تاريخها الى زمن الفراعنة والآشوريين ، اما الطريق الواقعة بين اليمامة ومكة فالراجح انها نشأت عن انتعاش الطريق الحجازية ، وكانت مكة في ذلك الزمن السحيق ليست اكثر من مناخ موقت للاستراحة على طريق اليمن — الحجاز .

اما تيماء فكانت المركز التجاري الأعظم للعالم القديم لا يشق غبارها في ذلك بلد ، ولا يباريها قطر ، فكانت عروة الوصل بين الحجاز وسورية وبين بابل ومصر لأنها تتصل ببابل عن طريق حائل ، وبمصر عن طريق معان ، وايلة ، وسيناء ، وبغزة عن طريق ايلة ، وبفلسطين عن طريق تراجان ، وبسورية عن طريق الصحراء الذاهبة رأساً الى بصرى .

ولقد كانت تيماء مطمح انظار الأمم المتنافسة فتداولها النفوذ الفرعوني والآشوري ثم احتلها جيش من بابل (سنة ٥٥٢ قبل الميلاد) ولبث فيها بضع سنين حتى ظهر الفرس على البابليين ، وفي عهد قمبيز استأذن الفرس العرب في اجتياز ارضهم لفتح مصر ولقد قال هيرودوتس (انه لم يكن في استطاعة الفرس ان يصلوا الى مصر لولا بي العرب عليهم ذلك)

طرق أخرى

وكان هنالك طرق اخرى تسير من حائل مخترقة الجوف وكاف الى بصرى ، وفي الجوف تلتقي هذه الطريق بفرع آخر يؤدي الى بابل .

اما الدرب المباشر من تيماء الى بصرى فقد استحدثه الرومان البيزنطيون لاجتناب المدن التي كانت تجبى فيها المكوس .

قبل البعثة

وفي الزمن الذي سبق البعثة النبوية المباركة واحتدم فيه القتال بين الفرس والروم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(٦٠٤ — ٦٠٧) انحطت ملاحة الرومان . ولم يتقدم الاحباش بتجارتهم نحو الشمال بل كانوا يشحنون قسماً كبيراً منها الى اليمن التي كانت بيدهم ثم انه يحمل منهـا الى مكة ، وحتى السلع الهندية الشرقية المنحدرة الى خليج فارس كانت ترد الى مكة ثم توزع منها على العالم الروماني اليوناني ، وكان الفرس كعهدهم يجاهدون لعرقلة التجارة الرومية باستيلائهم على اليمن وجرها (القطيف) .

نهضة مكة التجـارية

وخلاصة القول ان الزعازع السياسية التي طاحت بدولة الانباط ، والصراع الدائم بين الفرس والروم ، وعجز الأحباش عن القيام بما يطلبه الروم في أكثر الأحايين ، واضطراب حبل الأمن في معظم أقطار الجزيرة ، قد ادى كله الى نهضة « مكة » فاقتعدت غارب السيادة في (التجارة العالمية) واصبح الحجازيون يحتكرون مسالكهـا وانصرفوا الى استثمار الأموال ، وغدت مدينتهم « مكة » مركز العمولة ، والتصريف لتجارة غربي آسيا ، وقامت مكة في ذلك اجمع مقام تيماء ، وتدمر ، وسلع ، ولقد شاركت مكة في تلك العظمة التجارية مدينة يثرب الا ان يثرب كانت تغص باليهود المرابين .

موقع مكة التجاري — وكانت مكة متصلة بنقطة افتراق الطرق الدائرة حول الطرف الشمالي من (الربع الخالي) عن طريق اليمامة الى جرهـا واصبحت كذلك ملتقى الطرق الذاهبة الى اليمن وسورية والى تيماء والعراق .

عظمة القوافل — اما شأن القوافل فكان عظيماً وقد رأى استرابون قافلة منهـا فشبهها بالجيش اللجب لما كان فيها من الحراس ، والأدلاء ، والمتجسسين ، والحفظة على الحيوانات ، والخدم ، والوكلاء ، واضرابهم من ذوي المصالح ، وقد كان من المألوف في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ان يبعث بقافلتين من مكة الى سورية في كل عام وكانت القافلة تؤم بعض الأسواق في المدن التي تعينها الحكومة الرومانية البيزنطية حتى لا يفوتها استيفاء المكوس .

التجارة الحجازية — كانت التجارة الحجازية تجتاز ايلة (العقبة) الواقعة على حدود الطريق التي أنشأها تراجان من البحر الى فلسطين وكانت تسلكها القوافل الى غزة حتى ساحل البحر الأبيض ، وكانت بصرى التي جعلها ديقلوتيان عاصمة الولاية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العربية احفل سوق على التخم السوري ، ولم تكن بصرى هذه عاصمة عربية شبه مستقلة كالحيرة بل كانت تحت اشراف عمال الامبراطورية ، وكانت القوافل الوافدة من مكة تدفع بسلعها الى ايدي المشترين المفوضين من قبل الدولة ، واصبح كل شاب ذي مِرَّةٍ من أبناء الحجاز يسافر من مكة الى بصرى ولو مَرَّةً في كل عام .

الاستبداد المالي بمكة

ولما استفحل أمر التجارة بمكة استبدَّ مموِّلوها بفقرائها ونشأ نظام الربا الفاحش الذي ثقلت وطأته على النفوس وبلغ من فداحة أمره ان كان الدائن يضطر المدين الى اكراه إمائه على البغاء للحصول على المال قال الله تعالى: (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا) . وكان اولئك المرابون يرون الربا ضرباً من التجارة ، قال الله تعالى : (وقالوا انما البيع مثل الربا) . واما تلاعبهم بالتجارة وغشهم وتدليسهم فقد ذكره الله تعالى بقوله : (واذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم او وزنوهم يخسرون) . ولذلك كثر الناقمون والمملقون واستبد بالأموال الطغاة المسرفون ، فسخروا الأمة لأغراضهم وعبثوا بها وانصرفوا الى الكسب وحده ، لا يتورعون عن اقتراف مأثم ، ولا تمسك بحجزاتهم مروءة ، واذا تلوت كتاب الله وجدته يخاطب تلك الامة المنهمكة بالتجاره بالالفاظ التجارية كقوله: (من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً) . وقوله : (الا ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم) . وقوله : (واذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا اليها وتركوك قائماً) . الى غيرها من امثالها في التنزيل الحكيم .

قريش

اما قريش فكانت في تلك الحلبة التجارية هي المجلية فقد قبضت على مخنق العرب واحتجنت الأموال ، واستأثرت بالمتاجر او كادت ، وان لاسمها رنيناً في أذني يوسوس الي بانه تصغير تعظيم للقرش وهو دابة عظيمة تكون في البحر المالح تخافها دواب البحر كلها لقوتها وبطشها ولا تزال معروفة حتى اليوم بين العرب وفي الحجاز خاصة باسمها القديم اي القرش ويوجس منها الناس الخوف الشديد ويقال لها قريش كذلك بصفة المصغر .

قال الشاعر :

وقريش هي التي تسكن البحـ ـر بها سميت قريش قريشا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تأكل الغث والسمين ولا تتـ ـرك فيه لذى جناحين ريشا
هكذا في البلاد شأن قريش يأكلون البلاد أكلا كميشا

اجل ايها السادة : لقد ذكر المؤرخون ان كانت قريشاً في أول امرها قبيلة متفرقة في البراري حتى جاء قصي بن كلاب من الشام فجمعهم ، وكانت تدعى قبل ذلك النضر بن كنانة وسماها قريشاً من التقريش اي التجميع وقيل غير ذلك وان هنالك نظرة اخرى في أصلها فقد جاء في «لسان العرب» وغيره (ان منشأها من بابل قال محمد بن سيرين : سمعت عبيدة يقول سمعت علياً عليه السلام يقول : من كان سائلاً عن نسبتنا فانا نبط من كوثى) وروي عن ابن الاعرابي انه قال : سأل رجل علياً عليه السلام فقال : اخبرني يا أمير المؤمنين عن اصلكم معاشر قريش فقال : « نحن قوم من كوثى » واختلف الناس في قوله نحن قوم من كوثى فقالت طائفة اراد كوثى العراق — وهي سرة السواد التي ولد بها ابراهيم عليه السلام وقال آخرون أراد بقوله كوثى مكة وذلك ان محلة عبد الدار يقال لها كوثى ، فأراد علي عليه السلام انا مكيون أميون من أم القرى قال حسان :

لعن الله منزلا بطن كوثى ورماه بالفقر والامعار
ليس كوثى العراق اعني ولكن كوثة الدار دار عبد الدار

قال ابومنصور : والقول هو الاول لقول علي عليه السلام « فانا نبط من كوثى » ولو أراد كوثى مكة لما قال نبط ، و كوثى العراق هي سرة السواد من محال النبط وانما اراد علي عليه السلام ان ابانا ابراهيم كان من نبط كوثى وان نسبنا انتهى اليه قال ابن عباس نحن معاشر قريش حي من النبط من أهل كوثى .

يثرب وفنحاص — اما يثرب فكانت تشره كذلك الى المكاسب في حرص ونهم وانه ليحسن بي ان أقص عليكم خبر فنحاص احد احبار اليهود فان فيه ما يمثل رأي القوم في التهالك على الحطام ، واستساغة السحت فقد قال فنحاص لأبي بكر رضي الله عنه « والله يا ابا بكر ما بنا الى الله من فقر ، وانه الينا لفقير ، وما نتضرع اليه كما يتضرع الينا ، وانا عنه لأغنياء ، وما هو عنا بغني ، ولو كان غنياً ما استقرضنا اموالنا كما يزعم صاحبكم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ينهاكم عن الربا ويعطيناه، ولو كان غنياً ما اعطانا الربا». فغضب ابو بكر رضي الله عنه فضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً وقال: «والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك اي عدو الله»

وقال الله تعالى (لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن اغنياء سنكتب ما قالوا) ذلك ما كان عليه العرب في الجاهلية من مرهق البغي الذي استأصل من قلوبهم شأفة الرحمة والشفقة وقطع بينهم دابر التعاون على البر والاحسان، ولذلك استشرف العالم اجمع متشوقاً الى المصلح الأعظم صلى الله عليه وسلم وازف اوانه، وحان إبّانه، لينقذ الانسانية من العدوان، ويضع عنها عبء الطغيان.

واني لأختم مقالي هذا ببيان الوان التجارة التي تداولتها ايدي العرب في البلاد العربية لانفسهم ولغيرهم من الامم ليكون في ذلك بعض الحجة على صلات العرب بغيرهم من الشعوب الأخرى، وسعيهم وراء الربح وعلى انغماسهم في الترف وتكاثرهم بكل حلي وزينة ولقد قال الله تعالى (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى). واما أنواع تلك المتاجر فهي من الهند الدر والياقوت والمسك والكافور والعود الرطب وأنواع العطر والفلفل، ومن الصين الحرير والقصب، ومن اليمن نفسها الذهب من معدن عشم، والجزع والعقيق من مخاليف اليمن الشرقية، ومن الشحر النارجيل والتنبل، ومن الانحاء الاخرى العبيد والبهار والانسجة الفاخرة والوشي والنمارق والمنساج والعسل والصوف والمن والادم والبرود والفحم والحنطة والحجارة الكريمة.

وقال حزقيال في الاصحاح السابع والعشرين عن العرب انهم يتاجرون بالخرفان والكباش والاعتدة وانخر انواع الطيب وبكل حجر كريم والذهب.

وصفوة القول ان العرب كانوا يتجرون مع سورية بالارجوان والوشي والكتان والمرجان والياقوت، ومع فلسطين بالحنطة والحلاوة والعسل والزيت والبلسان ومع دمشق بالصوف الأبيض والخمر.

اما تجارة البدو الرائجة عند ذوي اليسار منهم فكانت فيما تفتقر معايشهم اليه فالوبر للبجاد، والصوف للخباء، والشعر للفسطاط، والقطن للسرادق، والاديم للطراف. قال طرفة: رأيت بني غبراء لا ينكرونني ولا اهل ذياك الطراف الممدد

فؤاد الخطيب
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net